اتصال العرب بالغرب الأوروبي في العصر الحديث

لا شك أن اتصال الغرب المسيحي بالمسلمين كان قديما بحكم المجاورة، وخاصة العلاقات التجارية، ولكن باتساع رقعة الدولة الإسلامية في العهد الأموي حدث الصدام العسكري مع بيزنطة الشرقية، ووصل المسلمون إلى اسبانيا وجنوب أوروبا، واستفاد الأوروبيون من المسلمين حضاريا، وأصبحت المسيحية الشرقية أكثر تقدما من المسيحية الغربية لأنهم يعيشون تحت وصاية الدولة الإسلامية. إن أوروبا لم تكن جماعة دينية محضة بل أرادت ان تكون سياسية أيضا، وبضعف المسلمين خرجت أوروبا الحديثة. (جعيط، 1978، صفحة 11).

1. النهضة الأوروبية:

يختلف مفهوم النهضة الأوروبية تماما عن مفهوم المشروع النهضوي العربي، فهما لا ينتميان إلى لحظة تاريخية واحدة ولا يعكسان نفس التطور، وإن كان المشروع العربي محتك به مباشرة ومقلد له. فالمستوى الفكري الذي وصلت إليه أوروبا في القرن التاسع عشر وهو ما يسمى بالحداثة، كان قد مر بعدة مراحل عبر عدة قرون. ابتداء من القرن الثاني عشر حيث بدأ بتعرية الواقع الأوروبي تماما من الأغطية النظرية القديمة الموروثة عن العصر الوسيط للإفلات من سيطرة الكنيسة على العقل والوجدان، والرجوع إلى إحياء التراث اليوناني والروماني الفلسفي والعلمي والفني والأدبي، ومعناه الرجوع إلى العقل ومنجزاته. (الجابري، 2009، صفحة 59)، ثم جاء عصر النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر رافضا الموروث كمصدر للعلم والتحول إلى العقل والطبيعة. فرأى أن العقل والوحي شيء واحد والطبيعة والدين شيء واحد. ونشطت المذاهب في القرن السابع عشر لإيجاد علاقة بين الله والطبيعة والانسان. فنشأت عدة مذاهب منها العقلانية والمثالية النقدية والحسية. (بركات، 2000، صفحة 6).

كان قوام عصر الأنوار في القرن الثامن عشر هو التحرر من جميع السلط التي تواجه الفكر والسلوك وعدم الاعتراف إلا بسلطة العقل. ومعناه الاستقلال عن كل تراث قديم وخلق تراث جديد يكون مرجعيته نور العقل وحده. وفي القرن التاسع عشر رفعت الحداثة العقل إلى درجة أعلى لتجعل منه "منطقا"، وأصبحت نظرتهم إلى التاريخ ليس مجرد أحداثا، وإنما هو صيرورة يحكمها منطق أو "عقل" خاص. ومنها جاءت فكرة "الوحدة والتقدم" والتي مراماها البعيد وحدة الجنس البشري وتقدمه من منظور مركزية

أوروبيـــة، حيـــث أوروبـــا الســـاحة التاريخيـــة والجغرافيـــة التـــي يـــدخل بهـــا "العقـــل" التاريخ. (الجابري، 2009، صفحة 60).

فـالفكر والـوعي الأوربـي إذن مـر عبـر مراحـل تتناسـب مـع تراثـه وبيئتـه، وهـي تختلـف تمامـا عـن البيئـة العربيـة الإسـلامية الشـرقية، ففـي القـرن التاسـع عشـر لـم يكـن العـالم العربـي آنـذاك قـادرا علـى اسـتيعاب الحداثـة الأوروبيـة وشـعاراتها التـي رفعهـا كثيـر مـن رواد النهضة العربية.

2. بعض النزعات الفكرية بأوروبا في القرن التاسع عشر:

بـرزت في أوربـا في القـرن التاسـع عشـر عـدة نزعـات فكريـة تطـورت عـن فكـر الأنـوار للقـرن الثـامن عشـر، وتصـب كلهـا في مصـب واحـد هـو تكـريس فكـرة تقـدم الإنسـان الأوربـي وجـدارة أوربـا بالهيمنـة علـى العـالم وتمدينـه، ونشـر الحضـارة في أرجائـه. (الجـابري، 2009، صـفحة 24) دفعـت هـذه النزعـات حركـة الاسـتعمار مـن جهـة، وأثـرت علـى المسـلمين فكريـا مـن جهـة أخـرى، حيـث نشـأت حركـات فكريـة بـين مؤيـد ومعـارض للفكـر الغربـي. ونـرى مـن الضروري أن نتعرض لبعض النزعات الفكرية الغربية:

-**التفـاوت الإنسـاني:** سـادت في أوربـا في النصـف الثـاني مـن القـرن التاسـع عشـر فكـرة تفـوق الإنســان الأوروبـي، وجـدارة سـيطرته علـى العـالم، وارتـبط ذلـك بنظريـة عرقيـة كـان أساسـها نظريـة التطـور الإنسـاني لـداروين، واكتشـف التفـاوت الإنسـاني الأساسـي في ثلاثـة مجـالات: التفـاوت بـين أجنـاس البشـر، وتفـاوت بـين الأمـم وتفـاوت بـين الأفـراد، وكتـب الكونـت جوبينيـو(Count Gobineau) في حـوالي سـنة 1853 عـن "التفـاوت بـين الأجنـاس والأعـراق"، (فـرانكلين-ل-بـاومر، 1989، صـفحة 106/3) ولايمثـل هـذا عنوانـا لأهـم كتبـه فحسـب بـل إنـه يمثـل مفتاحـا لجدلـه العرقي المضـاد للأمـم السـامية، وبخاصـة العـرب. ذلـك أنـه يـذهب إلى حـد الاعتقـاد المتعـالي بـأن تـاريخ العـالم ينزع إلى عـزل الآريـين الشـقر الطـوال القامـة، مـن أجـل أن يكونـوا "أسـياد الأرض" (الـدعمي، 2006، صـفحة 61). وقـد كانـت هـذه الكتابـات وغيرهـا تـدرس ظـاهرة التقـدم والتخلـف علـى مسـتوى الاجتمـاع والحضـارة وترجعهـا إلى سـبب واحـد وهـو العامـل العرقي. (الجـابري، 2009، صـفحة 25)وقـد سـاهمت هـذه النظريـة في دراسـة الإنسـان وتاريخـه، كمـا أنهـا جعلـت مـن العـرق الأبـيض أنقاهـا وفي مقدمتـه العـرق الآري، ليشمل اليونان والرومان قديما وهم سكان أوربا حاليا.

Université Mohamed Boudiaf - M'sila

القومية: إن هذا التفكير دعم فكرة القومية، ومن غير المتنازع فيه أن القرن التاسع عشر هو قرن القومية، ففي الدول المتعددة القوميات أظهرت الأقليات تعلقها بتقاليدها ولغتها وديانتها وتاريخها، (Milza, 1968, p. 100) وهذا ماأثر سلبا على وحدة الدولة العثمانية. وقد حقق الأوربيون في توجههم القومي وعيهم بذاتهم وتجاوزوا السلوك الفردي المحدود ولم يعودوا يجدون في الأفكار ذات الصبغة المسيحية ما يعبر عن اهتمامهم أو يعكس مصالحهم وحققوا الانتقال من الولاء للحكام وخدمتهم إلى الارتباط بالوطن والتضحية من أجله. (يحي، د.ت، صفحة 487/2)

لقد دفعت التيارات الفكرية ومنها القومية، الإمبريالية الأوربية بشكل مدهش، فقوة ألمانيا كان من وراء قوميتها، وقد برهنت على عبقريتها وتكبرها القومي بإعطاء الحرية الواسعة لإرادتها في السيطرة. وفي فرنسا كانت هزيمة 1871 جرحا عميقا دفعها إلى النفوذ الواسع والاحتلال، وأظهر جول فيري (Jules Ferry) مهارته في نهضة ضميره القومي في المسائل الاستعمارية. (Milza, 1968, p. 62) فالمركزية العرقية ذات الصبغة الاحتقارية تبرر السيطرة، وهذه بدورها تعود لتغذي العرقية، فكل العالم غير الأوربي وجد نفسه من دون أهمية ومجردا من قيمه التاريخية وأُدين الإسلام باعتباره رديفا للتعصب واعتبرت فكرة الجامعة الإسلامية مؤامرة ضد أوروبا. (جعيط، 1978، صفحة 17)

-**التاريخانية**: يُعد القرن التاسع عشر قرن النقد التاريخي والتاريخانية أو الروح التاريخية، فقد تنبأ المؤرخ الفرنسي أوجستان تيري (Thierry) في شبابه بأن التاريخ سيضع طابعه على القرن التاسع عشر مثلما وضعت الفلسفة طابعها على القرن الثامن عشر، وحسب رينان أن التفكير الأوربي بلغة التاريخ من المبتكرات الأصلية في أوربا القرن التاسع عشر، فقد انكب الأوربيون على إعادة كتابة تاريخ أوربا وفلسفته. فانتشرت أفكار تفوق الحضارة الغربية على باقي العالم وتفوق الجنس الأوربي وخصائصه الفكرية والسلوكية والفيزيائية المميزة، وهذا ماساعده على النهوض (فرانكلين-ل-باومر، 1989، صفحة 15،106)حسب اعتقادهم. كما أن فلسفة القرن التاسع عشر هاجمت الديانات السماوية، وكانت تنفر من الخوارق والميتافيزيقا، وكانت تؤكد على العلم والفكر الحر (نقد التقاليد الدينية)، وانتشر شعار "من الدين إلى الفلسفة" ولم يتوقف نقدهم للمسيحية بل هاجموا كل الديانات السماوية، ومنها الإسلام، فباسم العلم والعقل هوجم الإسلام.

-**الاستشراق**: نتيجة للصراع بين المسلمين والمسيحيين، ونظرا للرغبة الجامحة للدول الاستعمارية للسيطرة على الانسان وبخاصة الشرقي منه، والذي يقف ودينه عقبة كأداء أمام التوسع الإمبريالي. فقد كرست الدول الاستعمارية علماءها وفلاسفتها ومؤرخيها، لدراسة الإنسان

الشـــرقي في جميع نواحيه التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية والدينية، وكلها مهدت الطريق للمد الاســتعماري، وفي وســط الجموح العلمي الذي ســاد أوروبا في القرن التاســع عشــر، والدعم المادي والمعنوي الذي لقيه المهتمون بالدراسات الشرقية، فقد نما وترعرع الاستشراق. إن المستشرق الذي انكب على دراسة الشرق سكانه وأحواله وحضارته كان بصورة أو بأخرى يكرس تفوق الإنســان الأوربي تاريخيا وحضــاريا وبيولوجيا وعقليا، ويبرر هيمنة أوروبا. (الجابري، 2009، صفحة 27) ، ويرى هشام جعيط "أن الاستشراق استخدم المسيحية والعلمنة المعاصرة لاتهام الإسلام اعتباطيا إما بنقص في الروحانية وإما بالجمود التيوقراطي". (جعيط، 1978، صفحة 27).

ولعل من أهم جوانب الدراســات الاســتشــراقية هو دراســة الإســلام ومكانته في تاريخ الحضارات، وشهد القرن التاسع عشر إعادة التركيز على الإسلام في الفكر الأوربي، بوصفه حدثا تاريخيا استثنائيا ذا أثر ما انفك يتواصل عبر الماضي وحتى الحاضر. (الدعمي، 2006، صفحة 54) كما ركزت بعض الدراسات على دراسة تاريخ الديانات ولعب الدارسون الألمان دورا كبيرا في ذلك. حيث كانوا ينظرون إلى الدين والتراث الإســلامي بعقول شــكلتها ثقافة عصــرهم، حيث طبقوا الدراســات النقدية على النصــوص المقدســة لاكتشــاف التطور المبكر للتراث الديني وتسجيل وتفسير الحياة والعادات والمعتقدات لشعوب آسيا وإفريقيا. (حوراني، تاريخ الشعوب العربية، 1999، صفحة 134/2) وذلك بغرض السيطرة على هذه الشعوب.

.

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila